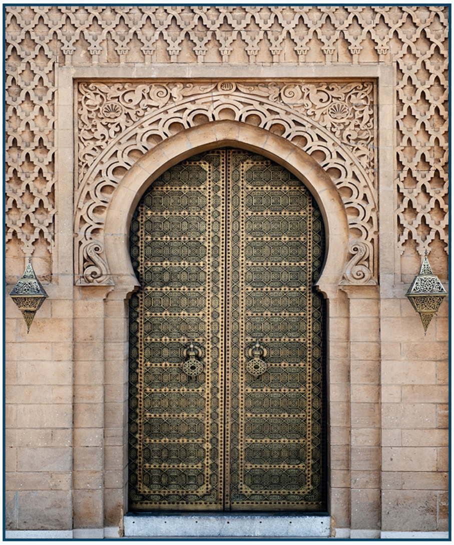
namacenter

مركز نماء للبحوث والدراسات
Namaa Center for Research and Studies
نماء وانتماء

أوراق نماء



علم مقارنة الأديان: أصله، ونشأته، وتطوره

ربيع شكير

علم مقارنة الأديان

أصله، ونشأته، وتطوره

بسم الله الرحمن الرحيم

علم مقارنة الأديان

أصله، ونشأته، وتطوره

الدكتور/ ربيع شكير

المحتويات

يتكوّن البحث من

مُقَدِّمَة

باسم الله والحمد لله والصلاة والسلام علىٰ رسول الله؛ نبينا محمد بن عبد الله وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

وبعد، فإن الله ﷻ في كتابه العزيز دعا المسلمين إلىٰ الحوار مع الآخر مهما كان هذا الآخر، ووجهه من خلال آيات كثيرة إلىٰ كيفية هذا الحوار، حتىٰ لو كان مع المخالفين والمعاندين، وقد أعطانا رب العزة نموذجًا مهمًا لهذه القاعدة، وهو حواره -وهو رب العالمين ﷻ- مع إبليس -العاصي والمعاند والكافر-، بل إن الله ﷻ استجاب لدعائه وأنظره إلىٰ يوم يبعثون.

وعندما نستعرض سير الأنبياء والمرسلين، نجد أن هذا المبدأ هو أساس مهم في أسلوب دعوتهم، فقد لبث نوح عليه السلام ألف سنة إلا خمسين، وهو يحاور قومه ويجادلهم، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [هود: ٣٢]، وإبراهيم عليه السلام حاور النمرود حوارًا يقوم علىٰ الحجة والبرهان، قال تعالىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ورسولنا وقدوتنا محمد ﷺ كان مثالًا حيًا في التعامل الإنساني والحوار مع غير المسلمين، فقد كان عليه الصلاة والسلام يقيم منهجًا يعلم من خلاله أمته أن الآخر موجود، ولا بد من التعامل معه، وأولىٰ مبادئ التعامل هو الحوار والجدال المنطقي مع أصحاب الديانات الأخرىٰ السابقة علىٰ الإسلام، خاصة

اليهود والنصارىٰ. فالرسول ﷺ حاور المشركين في مكة، وجاءت آيات قرآنية ترد علىٰ شبه المشركين في الله واليوم الآخر، وبعد هجرته عليه الصلاة والسلام إلىٰ المدينة، كان من الواضح أن تعامل النبي عليه الصلاة والسلام مع اليهود داخل الدولة الإسلامية، دليل علىٰ اعتراف الإسلام بوجود الديانات الأخرىٰ في مجتمعه والمجتمعات الأخرىٰ.

ومع ذلك فإن هذا لم يمنع من نزول الآيات القرآنية التي تبيّن وتوضح حقيقة الدين الصحيح في رسالتي موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، وكانت هناك وقفات قرآنية مع عقائد هؤلاء تدعوهم إلىٰ الكلمة الموصلة إلىٰ المراجعة والتفكير، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

واستمر المسلمون يسيرون علىٰ هذا النهج، وقامت حضارة الإسلام تعترف بالآخر من غير المسلمين ولا تنكر وجودهم، ولهذا عاش غير المسلمين في أمان واطمئنان داخل المجتمعات الإسلامية، وظهرت الحوارات والمناظرات والردود في كتب وموسوعات كتبها علماء مسلمون عن أهل الديانات الأخرىٰ وعقائدها وشرائعها، بكل موضوعية وأمانة، ومن دون اجتراء أو ظلم، وهذا الكم الكبير من كتب الملل والنحل، لم يكن ليتم لولا أن هؤلاء العلماء قد عرفوا هذه الديانات عن كثب، فدرسوها وحللوها، مما جعلهم روادًا في دراسة الأديان، وهكذا ظهر: النوبختي، وابن حزم، والشهرستاني، والبيروني وغيرهم.

واليوم، وقد أصبح هذا العلم من أهم العلوم وأشهرها فلا توجد جامعة في الغرب والشرق إلا ويوجد فيها قسم يعنىٰ بعلم مقارنة الأديان، ويعود هذا إلىٰ انفتاح العالم بعضه علىٰ بعضٍ، فوسائل الاتصال فتحت الباب واسعًا أمام الإنسان كي يتفاعل مع غيره من أبناء أمته أو أبناء الأمم الأخرىٰ، لذا أصبح من الواجب علىٰ طلبة الجامعات، خاصة أولئك الذين يدرسون العلوم الشرعية أن ينفتحوا علىٰ هذا العلم الهام، الذي من خلاله يمكن أن يتواصلوا مع أبناء الأمم والديانات الأخرىٰ.

المبحث الأول
علم مقارنة الأديان: الأهمية والفوائد

قبل تفصيل الحديث عن علم مقارنة الأديان؛ من حيث نشأته وتطوره ومراحله التي مر بها عبر مختلف الأزمان والعصور، لا بد أن أقدم بين يدي هذا كله بكلمة مختصرة أبين فيها بعض فوائد دراسة هذا العلم الإسلامي الجليل.

فأقول وبالله التوفيق: إن اشتغال واهتمام علماء ومفكري الإسلام بعلم مقارنة الأديان يدل دلالة واضحة علىٰ أهمية هذا العلم ومنزلته الجليلة العظيمة بين باقي العلوم الإسلامية الأخرىٰ.

فبهذا العلم استطاع أسلافنا الدفاع عن الإسلام ضد ما واجهه من تحديات واعتراضات، وبه نستطيع نحن أن ندافع اليوم عنه أمام التحديات التي تواجهه وتواجهنا، وبه نستطيع توسيع دائرة الحوار والنقاش مع الديانات الأخرىٰ.

وبعلم مقارنة الأديان يزداد إدراك المسلم لمكانة وقيمة القرآن الكريم بين باقي الكتب الأخرىٰ التي نالها التحريف والتبديل والتغيير، وكذلك الأمر عند الاطلاع علىٰ الشريعة والعقيدة وهكذا . . .

وبدراسة هذا العلم يتمكن الباحث من التعرف علىٰ تاريخ كل دين من الأديان، وإلىٰ أي مدىٰ تأثر أو انحرف عن أصله خلال رحلته التاريخية الطويلة، وهذا سيجعل الباحث يتعرف علىٰ مجموعة من الحقائق المهمة؛ منها مثلًا: أن المسيحية الحالية ليست هي مسيحية عيسىٰ عليه السلام علىٰ الإطلاق، وأن اليهود جعلوا تاريخهم بعض دينهم، وأن المحاولات التي جرت للانحراف بالإسلام قد فشلت تمامًا مهما اختلفت أغراضها وأهدافها، وحافظ ديننا الحنيف عبر مختلف العصور

علىٰ صحته ونقائه؛ وذلك بفضل القرآن الكريم، وأحاديث الرسول العظيم الصحيحة ﷺ.

وبدراسة هذا العلم تتضح للمسلم حقيقة دينه، ويكتشف بُعد كثير من المسلمين عن دينهم الصحيح؛ ويبين أسباب هذا البعد، وقد يقترح الحلول المناسبة لكثير من العقبات التي تحول دون عودة المسلمين للإسلام الصحيح.

كما أن هذا العلم يكشف لغير المسلم حقيقة دينه، ويبيّن له تفوق الإسلام علىٰ باقي الأديان، وخصوصًا اليهودية والمسيحية، واستئثاره من دونها بعناصر الصلاحية والخلود.

ومن أبرز فوائد هذا العلم كذلك أنه سلاح لنا في الحاضر كما كان سلاحًا في الماضي؛ للدفاع عن الإسلام في مواجهة ما يتعرض له من مطاعن وادعاءات باطلة.

وأحسب أن ما أشرت إليه من فوائد هذا العلم، يكفي للتدليل علىٰ أهميته ومكانته، وأن حاجتنا إليه لا تقل عن حاجتنا إلىٰ غيره من العلوم الإسلامية الأخرىٰ، والله أعلم.

المبحث الثاني
علم مقارنة الأديان: علم إسلامي أصيل

يظن كثير من الناس أن علم مقارنة الأديان من ابتكار المستشرقين، قد اتخذوه وسيلة ومنهجًا لمحاربة الإسلام وتخريبه.

والحقيقة غير ذلك؛ إذ إن هذا العلم ليس من أعمال المستشرقين ولكنه من ابتكار المسلمين، فهذا العلم من أعمال المسلمين وإبداعهم، وهو بذلك من العلوم الإسلامية الأصيلة، وتدليلًا علىٰ ذلك أقدم الحقائق الآتية:

١- إن علم مقارنة الأديان لم يظهر قبل الإسلام لعدم اعتراف دين بدين آخر؛ لأن الأديان قبل الإسلام لم يعترف أي منها بالأديان الأخرىٰ، وكان كل دين يعد ما سواه من الأديان والأفكار هرطقة وضلال، وحسبك أن تتذكر موقف اليهود من المسيحية ومن المسيح، وبالتالي موقف المسيحية من اليهودية واليهود، فاليهودية لم تعترف بالمسيحية ولا بالمسيح واعتُبر المسيح ثائرًا استحق عندهم الحكم بالإعدام؛ والمسيحية اعتبرت نفسها وريثة اليهودية ولم ترَ مع وجودها وجودًا لليهودية، ومثل ذلك موقف الهندوسية من البوذية والبوذية من الهندوسية، ومثله موقف المسيحية من الإسلام بالأندلس(١).

٢- إن الإسلام تميز بموقفه من الأديان الأخرىٰ بخاصيتين اثنتين:

الخاصية الأولىٰ: من الناحية النظرية.

الخاصية الثانية: من الناحية الواقعية.

---

(١) اليهودية، الدكتور أحمد شلبي، الطبعة الثامنة ١٩٨٨، مكتبة النهضة المصرية، ص: ٢٤.

فمن **الناحية النظرية** يعلن الإسلام أنه الحلقة الأخيرة من سلسلة الأديان، وأنه اشتمل علىٰ أهم ما في الأديان وأضاف إلىٰ ذلك ما تحتاج إليه البشرية في مسيرتها إلىٰ يوم الدين، قال الله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

فدين الإسلام هو الدين الوحيد الذي لا دين سواه؛ قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند تفسيره لهذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾ إخبار منه تعالىٰ بأنه لا دين عنده يقبله من أحد سوىٰ الإسلام، وهو اتباع الرسل فيما بعثهم الله به في كل حين، حتىٰ ختموا بمحمد ﷺ، الذي سد جميع الطرق إليه إلا من جهة محمد ﷺ فمن لقي الله بعد بعثة محمد ﷺ بدين علىٰ غير شريعته فليس بمتقبل ....[1]، وقال سبحانه في السورة نفسها وفي السياق نفسه: ﴿وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

ويجمع المفكرون المسلمون علىٰ أن كل رسول يجيء برسالة تناسب زمانه وتحقق أغراضها في ذلك الزمان، وكلما تغيرت الحاجة جاء طور من الديانة جديد يتفق مع الأديان السابقة في أصل الوحدانية الكبير ويختلف في فروعه تبعًا لحاجات الناس، وهذا هو موقف الإسلام بالنسبة للأديان السابقة، وبالنسبة لحاضر البشرية ومستقبلها.

ويتجه المفكرون المسلمون في تفسيرهم قوله تعالىٰ: ﴿الٓمٓ ١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ٢ نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٣ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلۡفُرۡقَانَۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١-٤] إلىٰ أن الكفر بأي دين من الأديان التي نزلت بها الكتب المشار إليها ضلال يستحق مرتكبه العذاب الشديد.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، للحافظ ابن كثير، طبعة: ٢٠٠٤م، دار الفكر بيروت لبنان، ١/ ٣٢٣.

وأما من **الناحية الواقعية** فالإسلام يعترف بالوجود الفعلي لجماعات غير مسلمة، ويتحدث عن أهل الكتاب وأهل الذمة، وينظم حقوقهم وواجباتهم، وفي ضوء هذا وجد علم مقارنة الأديان(١)، ومن المعروف شرعًا أن أصحاب الأديان المخالفة للإسلام صنفان:

الصنف الأول: هم أصحاب الديانات الوثنية أو الوضعية، مثل: المشركين عباد الأوثان، والمجوس عباد النار، والصابئين عباد الكواكب.

الصنف الثاني: هم أصحاب الديانات السماوية أو الكتابية، وهم الذين لهم دين سماوي في الأصل، ولهم كتاب منزل من عند الله كاليهود والنصارىٰ، وهم الذين يسميهم القرآن الكريم أهل الكتاب تلطفًا بهم، وإيناسًا لهم(٢).

٣- إن القرآن الكريم نفسه يحمل اتجاهًا مقارنًا في مجموعة من الآيات الكريمة، مثال ذلك قول الله تعالىٰ في سورة العنكبوت: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

فالاتجاه المقارن في هذه الآيات الكريمة واضح كل الوضوح؛ فعلىٰ سبيل المثال في الآية ١٧ من سورة العنكبوت؛ مقارنة واضحة بين الإله الحق وبين الآلهة الباطلة، فقد بيّنت الآية أن الإله الحق هو المستحق -بلا منازع- للعبودية، وأما غيره فلا، وهو الرازق الوحيد، وأما الآلهة الباطلة فإنها لا تملك للإنسان شيئًا؛ لا ضرًا ولا نفعًا.

---

(١) وللاستفادة أكثر يراجع كتاب: غير المسلمين في المجتمع الإسلامي، للدكتور يوسف القرضاوي حفظه الله.

(٢) الأقليات الدينية والحل الإسلامي، يوسف القرضاوي، الطبعة الأولىٰ: ١٩٩٦م-١٤١٧هـ، مكتبة وهبة، ص: ٢٧.

٤- إن الرسول ﷺ اهتم بمقارنة الأديان كما تفيد ذلك كتب الأحاديث وكتب السيرة، وقد أورد ابن هشام محاورةً رائعة بين الرسول عليه السلام وبين عدي بن حاتم الطائي، الذي كان قد اعتنق المسيحية وهي تعد دراسة جيدة في علم مقارنة الأديان، وقد انتهت بأن أعلن عدي دخول الإسلام وتبعه قومه[1].

وجرت مناقشات ومحاورات بين الرسول ﷺ وبين المشركين، واليهود حول الكتب المقدسة، وكان محصور بن سبحان هو المتحدث عن اليهود فقال للرسول ﷺ: ما دليلك علىٰ أن القرآن من عند الله؟ فنزل قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، وجرت مناقشات أخرىٰ بين الرسول صلىٰ الله عليه وبين وفد نجران من النصارىٰ، وعلىٰ إثر هذه الحوارات والمناقشات الدينية الهادئة دخل الإسلام من اليهود بعض قاداتهم مثل عبد الله بن سلام، وثعلبة بن سعيد، وأسد بن عبيد، كما دخل الإسلام كثير من نصارىٰ نجران، ومن القضايا التي جرت عليها المجادلات والمحاورات والمناقشات بين الرسول ﷺ وبين أصحاب الأديان: قضية الألوهية، وقضية النبوة، وقضية الكتاب أو الكتب المقدسة، وغيرها من القضايا.

وبهذه الحقائق التي ذكرت أكون قد بينت أن علم مقارنة الأديان علم أبدعه وابتكره المسلمون، بالاعتماد علىٰ المصدرين الأساسيين لهذا الدين الحنيف، وهما: **القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.**

وقد مر هذا العلم الإسلامي الأصيل -شأنه في ذلك شأن سائر العلوم- بمراحل وأدوار حتىٰ أصبح علمًا مستقلًا له رواده، ومصادره، وأهدافه، ومناهجه، وسأتحدث فيما يأتي بإذن الله تعالىٰ عن نشأة هذا العلم وتطوره.

---

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي، ١/٣٢٦.

المبحث الثالث

علم مقارنة الأديان: النشأة والتطور

إذا بحثنا عن الأسباب التي أدت إلىٰ نشأة وتكون علم مقارنة الأديان؛ فإننا نجدها كثيرة ومتعددة، فمن بينها الحرية الدينية والفكرية التي جاء بها الإسلام، وتسامح الإسلام والمسلمين مع أهل الكتاب[1]؛ وذلك تقريرًا لمبدأ:

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، مما دفع المسلمين إلىٰ التعرف علىٰ الأديان الأخرىٰ ومناقشتها ودراستها، يقول الدكتور أحمد شلبي: «إن تسامح المسلمين في حياتهم مع اليهود والنصارىٰ، ذلك التسامح الذي لم يسمع بمثله في العصور الوسطىٰ، كان سببًا في أن يلحق بمباحث علم الكلام شيء لم يكن قط من مظاهر العصور الوسطىٰ وهو علم مقارنة الأديان ونشأة هذا العلم لم تكن من جانب المتكلمين، ومعنىٰ ذلك أن هذا العلم لم يكن وسيلة عند المسلمين للحط من الأديان الأخرىٰ، وإنما هو دراسة وصفية، لا تعصب فيها، تؤدي إلىٰ نتائجها الطبيعية، وبواسطة هذا العلم دخل الآلاف والملايين في دين الإسلام»[2].

ومن بين الأسباب التي أدت كذلك إلىٰ نشأة علم مقارنة الأديان؛ الدفاع عن الدين الإسلامي بوصفة الدين الحق، الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه

---

(١) للتوسع في هذا راجع: الأقليات الدينية: يوسف القرضاوي، ص: ٣٣ وما بعدها.

(٢) اليهودية، أحمد شلبي، ص: ٢٨.

كما سبق وأشرت في المبحث السابق، والذي يظهر لي أن هذا السبب كان له الدور الرئيسي في نشأة علم مقارنة الأديان، فقد كان المقصد الحقيقي من مناقشات ومحاورات ومجادلات المسلمين لأهل الديانات والمقالات؛ هو التدليل علىٰ أن دين الإسلام هو الدين الصحيح؛ الذي يجب علىٰ كل من بلغه أن يؤمن به ويتبع هديه، وهذا لم يأتِ به المسلمون من عند أنفسهم، بل هو اتباع للمنهج الذي وضعه القرآن الكريم والرسول الأمين ﷺ، والأدلة علىٰ هذا كثيرة ومتعددة، سبقت الإشارة إلىٰ بعضها في المبحث السابق.

ويضاف إلىٰ ما ذكرت أن طبيعة الدعوة الإسلامية كانت في حاجة لهذا العلم من أجل التعرف علىٰ تلكم الأديان التي سبقت الإسلام، إما بغرض تبيين صحيحها من باطلها، وإما بغرض الرد علىٰ أهلها، وإما لأغراض أخرىٰ . . .

وإذا نظرنا إلىٰ الأدوار والمراحل التي مر بها علم مقارنة الأديان حتىٰ يومنا هذا، فإننا نجد أن هذا العلم قد مر بمراحل عديدة شأنه في ذلك شأن العلوم الإسلامية الأخرىٰ، أو قل شأن سائر العلوم، ويمكن إرجاع أهم المراحل التي مر بها إلىٰ ست مراحل:

المرحلة الأولىٰ: مرحلة النشأة

وتبدأ هذه المرحلة بنزول الآيات القرآنية التي تحمل في طياتها اتجاهًا مقارنًا، نحوُ قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وقوله تعالىٰ: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٧]، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]، والآيات التي تحمل طابع المقارنة كثيرة في القرآن الكريم، وهذه علىٰ سبيل المثال لا الحصر.

وكان الرسول ﷺ بجانب هذه الآيات يحاور اليهود والنصارىٰ، ويناقشهم في قضايا مختلفة، نحوُ: الألوهية والنبوة والتوراة والإنجيل، وغيرها من القضايا الهامة في الأديان التي تتعلق بمصير الإنسان، وعلىٰ هذا النهج كان الصحابة رضوان الله عليهم وتبعهم التابعون وهكذا . . .

المرحلة الثانية: مرحلة التدوين

فلما جاء عصر التدوين في منتصف القرن الهجري الثاني، وبدأ المسلمون يكتبون الفقه والتفسير والحديث اتجهوا كذلك للكتابة في علم مقارنة الأديان.

المرحلة الثالثة: مرحلة التطور والازدهار

استمر التأليف في علم مقارنة الأديان، وظهرت مجموعة من المؤلفات مثل: الآراء والديانات للنوبختي، وظهرت دراسات حول المسيحية واليهودية، وظهرت ترجمات للتوراة والإنجيل؛ مما جعل هذا العلم يشهد تطورًا ملحوظًا دام عدة قرون، وكثرت فيه الأبحاث والدراسات والمؤلفات؛ خاصة في القرن الثالث الهجري والرابع والخامس والسادس والسابع والثامن، إلىٰ حدود القرن التاسع الذي ظهر فيه كتاب: تحفة الأريب في الرد علىٰ أهل الصليب، للشيخ عبد الله الترجمان سنة ٨٢٣هـ.

المرحلة الرابعة: مرحلة التدهور والانحطاط

وبعد قرون من الحركة والازدهار أصاب علم مقارنة الأديان الضعف، وأدىٰ به ذلك إلىٰ الاختفاء مدة طويلة خاصة في القرون الوسطىٰ، ويرجع ذلك إلىٰ عدة أسباب، منها:

١- ازدحام قصور الملوك والخلفاء في عصور الضعف بزوجات من أهل الكتاب، وبعدد من الأطباء والوزراء من غير المسلمين، وبسبب نفوذ هؤلاء ضعف صوت مقارنة الأديان الذي كان يطعن في عقائدهم المنحرفة، وقد استطاع أصحاب النفوذ أن يُسكتوا أصوات المتحدثين في مقارنة الأديان حتىٰ اختفت هذه المادة من الدراسة ومن المناهج.

٢- زحف الصليبيون علىٰ الشرق الإسلامي بقصد تدمير الإسلام والمسلمين، وقابل المسلمون القوة بالقوة، وكان من الواضح أن الصليبيين لا يعرفون التسامح الديني ولا الجدال بالحسنىٰ، فخفت صوت هذه المجادلة تحت صليل السيوف.

٣- في عصور الضعف التي ألمت بالمسلمين اتجه أكثر فقهاء المذاهب إلىٰ التعصب لمذاهبهم الفقهية، وقَل أو انعدم اطلاعهم علىٰ المذاهب الأخرىٰ، ومن باب أولىٰ قل أو انعدم اطلاعهم علىٰ الأديان الأخرىٰ وقضاياها.

٤- ومما دفع المسلمين إلىٰ إهمال علم مقارنة الأديان -بالإضافة إلىٰ ما سبق- أن بعض المسلمين تبنوا الاتجاه الذي كان سائدًا لدىٰ أتباع الأديان السابقة للإسلام، فقد كان هؤلاء لا يعترفون بغير دينهم، وبالتالي لا يعترفون بإمكان المقارنة بين الأديان، فلما اقتبس بعض المسلمين هذا الاتجاه دانوا به ووجد منهم من يهاجم مقارنة الأديان باعتبار أن الإسلام لا يقارن بسواه، وقد نسي الذين ينتهجون هذا الاتجاه ما سبق أن أوردناه من أن القرآن الكريم هو الذي وضع جذور هذا العلم، ووجدت به بعض آيات تحمل اتجاه المقارنة.

المرحلة الخامسة: مرحلة انتقال علم مقارنة الأديان إلىٰ الغرب

إذا كان المسلمون في عصور الظلام قد أهملوا علم مقارنة الأديان لسبب أو لآخر -كما سبقت الإشارة-، فإن موقف المسيحيين من هذا العلم كان مختلفًا، لأن اللقاءات السليمة بين المسلمين والمسيحيين في الشام والأندلس وصقلية عرفت المسيحيين بمقارنة الأديان، وأثبتت لهم قيمة هذا العلم فراحوا يتعلمون أسسه ويحاولون الانتفاع به.

ثم جاء عصر الاستعمار، وقرر الخبراء من المبشرين أن الإنسان به نزعة دينية في أعماقه مهما كان ماديًا أو تظاهر باللادينية، كما قرروا أن رباط الدين لا يقل عن رباط الدم والجنس، ثم إن معرفة الداعي بدين المدعو واعتقاده، يساعد كثيرًا في التأثير عليه، وبناء علىٰ هذه الأسس زاد علم مقارنة الأديان بالغرب نشاطًا ليكون من وسائل التبشير ونشر المسيحية.

المرحلة السادسة: مرحلة العودة إلىٰ الساحة الإسلامية

إن عودة علم مقارنة الأديان إلىٰ الساحة الإسلامية يتقدمها اهتمام الغربيين بهذا العلم، ويبدو لي من خلال الكتابات التي ظهرت منهم في هذا الباب؛ أن اهتمامهم بهذا العلم يرجع إلىٰ ما قبل القرن التاسع عشر الميلادي، ولكن سبق

هذا مرحلة اطلعوا فيها علىٰ مؤلفات المسلمين من زمن بعيد، عن طريق البعثات التي كانوا يبعثوا إلىٰ الشرق الإسلامي للبحث عن المخطوطات الإسلامية ونقلها إلىٰ بلادهم، ومؤلفاتهم اليوم خير شاهد علىٰ ما ذكرت.

بيد أن المسلمين في العصر الحديث أفاقوا من غفوتهم، وراحوا يحاولون أن يستعيدوا الزمام، وأن يُحيوا من جديد علم مقارنة الأديان ليكون في أيديهم سلاحًا في الحاضر كما كان سلاحًا في الماضي، وبدأ المسلمون يحاولون تطبيق قوانين ومبادئ هذا العلم في الدعوة إلىٰ الإسلام، وعُد العلم بواقع الأديان من متطلبات ثقافة الداعية الناجح(١)، والأمثلة علىٰ هذا كثيرة ومتعددة من أبرزها الداعية الإسلامي الشهير الشيخ محمد ديدات(٢) رحمه الله.

---

(١) انظر كتاب: ثقافة الداعية، يوسف القرضاوي، الطبعة العاشرة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، مكتبة وهبة، ص: ١٢١.

(٢) انظر كتاب: حوار ساخن مع داعية العصر، لمحمد عبد القادر الفقي، وكتاب: الشيخ ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة ...، لحمزة مصطفىٰ ميغا، الطبعة الأولىٰ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، فقد تضمن هذا الكتاب معلومات قيمة عن الشيخ أحمد رحمه الله.

خاتـمـة

وهكذا عاد علم مقارنة الأديان للظهور في معاهد العلم الإسلامي، ولكنه في الحق لم يأخذ بَعدُ مكانه اللائق، ونرجو أن يتجه إليه مزيد من الاهتمام ليؤدي هذا العلم دوره في التعريف بالإسلام ورد العدوان عنه، وليكشف عن أنواع الزيف التي ألصقها المغرضون بكثير من الأديان، ويوم ينشط هذا العلم ستخبو ترهات الباطل، وتتضح معالم الحق، وليس هذا اليوم ببعيد . . . ، وفي كلمة مجملة نتمنىٰ أن يعود علم مقارنة الأديان إلىٰ المعاهد الإسلامية، ويأخذ قدره بين العلوم الإسلامية، ليخدم الإسلام في الحاضر كما خدمه في الماضي.

والله ولي التوفيق وصلىٰ الله علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم.

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- اليهودية: الدكتور أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثامنة ١٩٨٨م.

٣- تفسير القرآن العظيم: الحافظ ابن كثير، دار الفكر بيروت لبنان، طبعة: ٢٠٠٤م.

٤- ثقافة الداعية: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة العاشرة ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٥- الشيخ ديدات ومنهجه في الحوار والدعوة: حمزة مصطفىٰ ميغا، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، الطبعة الأولىٰ.

٦- موسوعة التاريخ الإسلامي: أحمد شلبي، مكتبة النهضة المصرية، الطبعة العاشرة ١٩٩٥م.

٧- الأقليات الدينية والحل الإسلامي: يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، الطبعة الأولىٰ: ١٩٩٦م-١٤١٧هـ.

٨- تاريخ الأديان وفلسفتها: طه الهاشمي، منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت.

٩- دراسات في الأديان: عماد الدين الشنطي، مكتبة ومطبعة دار المنارة، الطبعة الثانية ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م.